موريس بورمانز

وُجوهُ التعاون الإنساني الضّروري

بين المؤمنين

يختبر الناس اليوم «تحوّلاً اجتماعيًّا وثقافيًّا حقيقيًّا تنعكس نتائجه حتى على الحياة الدينيّة» (الجذل والأمل ٤). وكيف لا يأخذهم الدّوار حِيال التناقضات الرهيبة التي يثيرونها ويعانونها في آن واحد. فالغنى والفقر، والترَف والعوَز، والقوّة والضعف، والجرأة والاستسلام، والحريّة والاستعباد، والعلم والجهل، والتقنيّة المتقدّمة والعجز المتخلّف، والصحة والمرض، والحياة والموت، تلك هي أبرز وجوه الاختلال في التوازن، التي تفعل في العالم الحديث فعلها، وتفسد كل العلاقات بين الأمم والجماعات والأشخاص.

أوليس من واجب المؤمنين، سواء أكانوا مسلمين أم يهودًا أم مسيحيّين، ان يأتوا، مع جميع الناس ذوي النيّة الصادقة مهما كان انتماؤهم الدينيّ والإيديولوجيّ، بجواب متوافق، وأن يعرضوا رسالة موحّدة، ويقدّموا عملاً منسّقًا؟ فالمشاكل الأساسيّة التي يجب على المؤمنين أن يجدوا لها، بأعمالهم ثم بأقوالهم وشروحاتهم، الحُلول التي يمليها عليهم الايمان بالله والمحبة للناس، إنما هي ذاتها: «ما هو الإنسان؟ ما معنى الألم والشرّ والموت، تلك الأمور التي ما زالت قائمة على ما حصل من تقدّم عظيم؟ ماذا يستطيع الإنسان أن يقدّم للمجتمع؟ وماذا يستطيع ان ينتظر منه؟ وما هو المصير بعد هذه الحياة؟» (الجذل والأمل ١٠).

١ - إكمال الخليقة

ليس الكون، عند أتباع ديانات التوحيد من مسلمين ويهود ومسيحيّين، من صنع المصادفة أو الضرورة. بل هو من تدبير رائع لا يكتنه سرّه إلّا الله وحده، لأنه أصله وغايته. فعلى المؤمنين إذن أكثر من أيّ سواهم، واجب العمل على نجاح العالم، فيتوافق أخيرًا، على أكمل وجه، مع كل ما خلقه الله لأجله: فالقصد الإلهيّ ليس بجامد، بل أراد الله فيه أن يلجأ، بحرية ومحبة، الى تعاون الإنسان. أوَليس في سبيل ذلك قد لخّص فيه، كما في مُنَمْنَمة بديعة الحُسن، روائعَ اللامتناهِيَيْن الأكبر والأصغر؟ ويعرف المسيحيّون: «أَنَّ الخَلِيقَةَ تَتَوَقَّعُ مُتَرَقِّبَةً تَجَلِّيَ أَبْنَاءِ اللهِ: فَإِذَا أُخْضِعَتْ لِلْبَاطِلِ... فَإِنَّمَا عَلَى رَجَاءِ أَنَّ الخَلِيقَةَ سَتُعْتَقُ هِيَ أَيْضاً مِنْ عُبُودِيَّةِ الفَسَادِ إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَبْنَاءِ اللهِ. فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الخَلِيقَةَ كُلَّهَا مَعًا تَئِنُّ حَتَّى الآنَ وَتَتَمَخَّضُ» (رو٨، ١٩-٢٢). أما المسلمون فلا ينسون هم أيضاً ما ورد لهم في كتابهم: «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ» (القرآن ٣١، ٢٠). ويردّد القرآن القول: «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» (القرآن ١٤، ٣٢-٣٤). فالمؤمنون مدعوّون إذن باسم الله نفسه، الذي خلق كل شيء بتوازن لا يني على ازدياد في التركيب والتطوّر، في سبيل انسجام شامل أسمى، الى العمل بعزم على إيصال الكون أخيرًا إلى كماله: أفليس بالمشاركة في «إكمال الخليقة» يستعدّ المسلمون والمسيحيّون ليكتشفوا أخيرًا «سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضاً جَدِيدَةً»؟ (رؤ٢١، ١).

فمن شأن المؤمنين أن يبتدعوا علاقات جديدة بين الإنسان والطبيعة، تغلب فيها كلمات الاحترام والخضوع والتكيّف على كلمات التلويث والعنف والاستعباد. ويتبع ذلك أيضاً علاقات جديدة بين التقنيّة والطبيعة، حتى تصير السِّمات الغالبة على الحياة الحديثة، المسمّاة بالتمدّن والتصنيع والاستهلاك، دليلاً على سيطرة الإنسان على غرائزه، وتعهّده الحكيم للطبيعة التي منها يستخرج خيراته. أوَيكون من الخيال المُغرِب التصوّر أن التقنيّة ستصبح هي أيضا حضارة إنسانيّة، فتقرن، في ما